شرح الأربعين النووية

الحديث الثالث والعشرون

الطُّهُورُ شَطْرُ الإِيْمَانِ

اللقاء السادس والعشرون

الحديث الثالث والعشرون:

عَنْ أَبِي مَالِكٍ الحَارِثِ بنِ عَاصِمٍ الأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: (الطُّهُورُ شَطْرُ الإِيْمَانِ، والحَمْدُ للهِ تَمْلأُ الميزانَ، وسُبْحَانَ اللهِ والحَمْدُ للهِ تَمْلآنِ – أَو تَمْلأُ – مَا بَيْنَ السَّمَاءِ والأَرْضِ، وَالصَّلاةُ نُورٌ، والصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ، وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ، وَالقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَو عَلَيْكَ، كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبَائِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا أَو مُوبِقُهَا) رواه مسلم.

ترجمة الراوي:

الحارث بن عاصم الأشعري صحابي جليل اختلف في اسمه، والأشعري نسبة إلى قبيلة باليمن يقال لهم: الأشعريون، والصحيح أنه غير أبي موسى الأشعري المشهور؛ لأن ذاك معروف بكنيته، وهذا معروف باسمه، أبو مالك قدم في السفينة مع الأشعريين على النبي-ﷺ- وأسلم وصحب النبي-ﷺ-وغزا معه وروى عنه.

وسأل أبو مالك الأشعري رسول الله-ﷺ-فقال له: ما تمام البر؟ قال: "أن تعمل في السر عمل العلانية".

عَنْ أَبِي مَالِكٍ الأَشْعَرِيِّ: "أَنَّهُمْ بَيْنَمَا هُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ فَذَكَرَ قَوْمًا لَيْسُوا بِأَنْبِيَاءَ وَلا شُهَدَاءَ، يَغْبِطُهُمُ النَّبِيُّونَ بِمَقْعَدِهِمْ وَقُرْبِهِمْ مِنَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ قَالَ: "هُمْ عِبَادُ اللَّهِ مِنْ بُلْدَانٍ شَتَّى وَقَبَائِلَ شَتَّى، مِنْ شُعُوبِ الْقَبَائِلِ لَمْ يَكُنْ بَيْنَهُمْ أَرْحَامٌ يَتَوَاصَلُونَ بِهَا، وَلا دُنْيَا يَتَبَاذَلُونَهَا، تَحَابُّوا بِرُوحِ اللَّهِ يَجْعَلُ اللَّهُ لَهُمْ مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ، وَيَجْعَلُ وُجُوهَهُمْ نُورًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ قُدَّامَ الرَّحْمَنِ، يَفْزَعُ النَّاسُ وَلا يَفْزَعُونَ، وَيَخَافُ النَّاسُ وَلا يَخَافُونَ". الذهبي إسناده صالح الدرر السنية

لقد كان أبو مالك الأشعري ناصحًا لله ورسوله حتى في لحظة مماته فعن شريح بن عبيد: أن أبا مالك الأشعري لما حضرته الوفاة قال: يا معشر الأشعريين، ليبلغ الشاهد منكم الغائب، إني سمعت رسول الله يقول: "حلوة الدنيا مرة الآخرة ومرة الدنيا حلوة الآخرة".

مات بالطاعون في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه سنة ثمان عشرة 18 هـ.

منزلة الحديث:

قال النووي رحمه الله: هذا الحديث أصل عظيم من أصول الإسلام، قد اشتمل على مهمات من قواعد الإسلام.

قال ابن حجر الهيتمي رحمه الله: هذا الحديث أصل عظيم من أصول الإسلام؛ لاشتماله على مهمات من قواعد الدين، بل نصف الدين، باعتبار ما قررناه في شطر الإيمان، بل على الدين جميعه، باعتبار ما قررناه من الصبر، وفي معتقها وموبقها.

شرح الحديث:

فهذا الحديث واحد من نصوص سنة النبي -ﷺ- الذي أوتي جوامع الكلم، وهو حديث عظيم الشأن جليل القدر؛ لما اشتمل عليه من مهمات من الحكم وبيان بعض فضائل الفرائض والنوافل والحث على العناية بالقرآن العظيم، وبيان حصيلة عمل الناس في هذه الحياة؛ فمنهم من يسعى في اعتقاداته ونياته وأقواله وأفعاله وأحواله في إعتاق نفسه من شقوة الدنيا وخزي الأخرى، ومنهم من يوبقها في دركات الشقاء، ويوردها ناراً تلظى (سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ) [آل عمران:191-192].

قوله: "الطُّهُورُ شَطْرُ الإِيمَانِ":

- بالضم الفعل وبالفتح الماء، والمراد به الوضوء، سمي طهورًا؛ لأنه يطهر الأعضاء.
- الطُّهور: فعلٌ يترتب عليه رفع حَدَث - كالوضوء والغسل - أو إزالة نجس، كتطهير الثوب والبدن والمكان، أو المراد الوضوء فقط.
- شطر: نصف. شطر الإيمان: قيل لأن الطهارة ظاهرة وباطنة، فالوضوء نصفه، وقيل: الوضوء نصف الصلاة؛ لأن الصلاة تُسمى إيمانًا.

قال الشيخ ابن عثيمين: أي نصفه، وذلك أن الإيمان - كما يقولون - تخلية وتحلية.

⇦التخلية: بالطهور، والتحلية: بفعل الطاعات.

⇦فوجه كون الطهور شطر الإيمان: أن الإيمان إما فعل وإما ترك. والتّركُ تَطَهُّرٌ، والفعل إيجاد.

فقوله: "شَطْرُ الإِيْمَانِ": قيل في معناه: التخلي عن الإشراك لأن الشرك بالله نجاسة كما قال الله تعالى: (إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ) فلهذا كان الطهور شطر الإيمان، وهذا المعنى أحسن وأعمّ.

ويعني أن التطهر بالماء أو التيمم بالتراب عند عدم وجود الماء أو العجز عن استعماله من حدث أصغر أو أكبر هو شطر الإيمان، يعني نصفه، والمراد بالإيمان هنا: الصلاة. كقوله تعالى: (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ) [البقرة:143]، يعني صلاتكم.

فالتطهر مفتاح الصلاة، فلا يقبل الله صلاة بغير طهارة، قال-ﷺ-: " لا يقبلُ اللَّهُ صلاةَ أحدِكُم إذا أحدَثَ حتَّى يتوضَّأ " صحيح أبي داود وفي الحديث الآخر: " لا تُقْبَلُ صَلاةٌ بغيرِ طُهُورٍ "صحيح مسلم وقال -ﷺ-: "لا يحافظُ على الوضوءِ إلا مؤمنٌ"صحيح الجامع.

وبيَّن -ﷺ-أن من فضائل الوضوء أن أمته يُدعون يوم القيامة غرًّا محجلين من آثار الوضوء، وعدَّ -ﷺ- إسباغ الوضوء على المكاره يمحو الله به الخطايا، ويرفع به الدرجات، وأخبر -ﷺ- أن الخطايا تتحات من أعضاء الوضوء مع الماء أو مع آخر قطر الماء، ومن توضأ فأحسن الوضوء ثم قال: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله وجبت له الجنة.

وقال -ﷺ-:" مَا مِنْ امْرِئٍ مُسْلِمٍ تَحْضُرُهُ صَلَاةٌ مَكْتُوبَةٌ فَيُحْسِنُ وُضُوءَهَا وَخُشُوعَهَا وَرُكُوعَهَا إِلَّا كَانَتْ كَفَّارَةً لِمَا قَبْلَهَا مِنْ الذُّنُوبِ مَا لَمْ يُؤْتِ كَبِيرَةً، وَذَلِكَ الدَّهْرَ كُلَّهُ". رواه مسلم

أَنَّ النبيَّ -ﷺ- قالَ لبِلالٍ عِنْدَ صَلَاةِ الفَجْرِ: يا بلَالُ، حَدِّثْنِي بأَرْجَى عَمَلٍ عَمِلْتَهُ في الإسْلَامِ؛ فإنِّي سَمِعْتُ دَفَّ نَعْلَيْكَ بيْنَ يَدَيَّ في الجَنَّةِ. قالَ: ما عَمِلْتُ عَمَلًا أَرْجَى عِندِي: أَنِّي لَمْ أَتَطَهَّرْ طُهُورًا، في سَاعَةِ لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ، إلَّا صَلَّيْتُ بذلكَ الطُّهُورِ ما كُتِبَ لي أَنْ أُصَلِّيَ. صحيح البخاري

ويدخل في الطهور من حيث المعنى التطهر من النجاسات المعنوية: من الشرك الأكبر والأصغر، والبدع، والمعاصي، بالحذر منها، والبعد عن مواطنها وأسبابها وذرائعها، والتوبة إلى الله تعالى -عن قريب- مما قد يكون اقترفه الإنسان منها، فإن في البعد عنها صيانة للإيمان من النقص والخلل أو البطلان، وفي التوبة مما قد حصل منها تكميلاً للإيمان وجبراناً لنقصه في كل آن.

❁"وَالحَمْدُ للهِ تَمْلأُ المِيزَانَ":

❍الحمد لله: الثناء الحسن على الله تعالى لما أعطى من نِعَم، والمراد هنا: ثواب لفظ الحمد لله.

❍الميزان: كِفَّة الحسنات من الميزان الذي توزن به أعمال العباد يوم القيامة.

وقد دلت نصوص الكتاب والسنة على وزن الأعمال يوم القيامة وثقل الميزان وخفته، قال تعالى: (فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ) [المؤمنون:102-103].

وقد اختلف العلماء فيما يوزن يوم القيامة على ثلاثة أقوال:

الأول: أن الموزون صحائف الأعمال.

والثاني: أن الموزون هو الأعمال نفسها.

والثالث: أن الموزون هو العامل نفسه.

⇦والصحيح أنه لا تعارض بين هذه الأقوال، وأن الأعمال وصحائفها وعاملها كل يوزن.

أي: وَالحَمْدُ للهِ: وصف الله تعالى بالمحامد والكمالات الذاتية والفعلية تملأ ميزان الأعمال؛ لأنها عند الله عز وجل عظيمة؛ ولهذا قال النبي -ﷺ-: "كَلِمَتانِ خَفِيفَتانِ علَى اللِّسانِ، ثَقِيلَتانِ في المِيزانِ، حَبِيبَتانِ إلى الرَّحْمَنِ، سُبْحانَ اللَّهِ وبِحَمْدِهِ، سُبْحانَ اللَّهِ العَظِيمِ"صحيح البخاري

❁"وَسُبْحَانَ اللهِ، وَالحَمدُ للهِ تَمْلآنِ - أو تَمْلأُ -":

❍سبحان الله: تعظيم الله تعالى وتنزيهه عن النقائص، والمراد هنا ثواب لفظ سبحان الله.

🗐قال الشيخ ابن عثيمين: (أو) هذه شك من الراوي، يعني هل قال: تملآن ما بين السماء والأرض، أو قال: تملأ ما بين السماء والأرض. والمعنى لا يختلف، ولكن لحرص الرواة على تحرّي الألفاظ يأتون بمثل هذا.

⇦وقد اختلف في معنى [تملأ الميزان]: فقيل إنه ضرب مثل، وأن المعنى لو كان الحمد جسمًا لملأ الميزان، وقيل: بل الله عز وجل يمثل أعمال بني آدم وأقوالهم صورًا ترى يوم القيامة وتوزن.

❁"وَسُبْحَانَ اللهِ، وَالحَمدُ للهِ ":

فيها نفي وإثبات. النفي في قوله: "سُبْحَانَ اللهِ" أي تنزيهاً لله عزّ وجل عن كل ما لا يليق به، والذي ينزه الله تعالى عنه ثلاثة أشياء:

الأول: صفات النقص، فلا يمكن أن يتصف بصفة نقص.

الثاني: النقص في كماله، فكماله لا يمكن أن يكون فيه نقص.

الثالث: مشابهة المخلوق.

❍ودليل الأول: قول الله عزّ وجل: (وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ)، فنفى عنه الموت لأنه نقص، وقوله: (لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَهُ) فنفى عنه السِّنَة والنوم لأنهما نقص.

❍ودليل الثاني: قول الله تعالى: (وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ)، فخلق هذه المخلوقات العظيمة قد يوهم أن يكون بعدها نقص أي تعب وإعياء فقال: (وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ).

❍ودليل الثالث: قول الله تعالى: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) حتى في الكمال الذي هو كمال في المخلوق فالله تعالى لا يماثله.

❁وَالحَمْدُ للهِ: الحمد يكون على صفات الكمال، فالحمد هو وصف المحمود بالكمال مع المحبة والتعظيم، فتكون هذه الجملة: "سُبْحَانَ اللهِ، والحَمْدُ للهِ" فيها: نفي النقص بالأنواع الثلاثة، وإثبات الكمال.

"تَملآنِ - أَو تَمْلأُ - مَا بَيْنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ" والذي بين السماء والأرض مسافة لا يعلمها إلا الله عزّ وجل.

✉سبحان الله والحمد لله لو قُدّر جسما لملأ ما بين السماوات والأرض، فيعطى من الثواب ما لو قدّر جسما لملأ ما بين السماوات والأرض.

📝أنها تملأُ ما بين السماء والأرض لعظمهما، ولاشتمالهما على تنزيه الله تعالى عن كل نقص، وعلى إثبات الكمال لله عز وجل.

❍سبحان الله! تنزيه لله تبارك وتعالى عن النقائص والمعايب، وقولك الحمد لله! تفويض منك إلى الله تعالى في كل الأمور وبيان شدة افتقارك إليه.

📝من ثواب كلمة ((الحمد لله)) أنها تملأ الميزان يوم القيامة، لأنها كلمة أحبّها الله تعالى وأحب أن يسمعها من عباده، ولذا حمد سبحانه نفسه قبل أن يحمده عباده فقال: (الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)، فهو الحميد في ذاته وصفاته وأفعاله وإن لم يحمده عباده.

✉فعلينا أن نحمد الله، في السراء والضراء، فإن ((الحمد لله تملأ الميزان)).

❁"وَالصَّلاةُ نورٌ":

❍الصلاة نور: معناه أن الصلاة تمنع من المعاصي وتأمر بالخير، وتنهى عن الشر، وتهدي إلى الصواب، فالصلاة يستضئ العبد بها ويرى بها الطريق، كما يستضئ بالضياء وبالنور، فالصلاة نور.

وقيل: معناه أن الصلاة تكون نورا حقيقيا في وجه صاحبها يوم القيامة كما تكون في الدنيا في وجهه بهاء وضياء وجمالا. وهذه حقيقة يراها أهل الفراسة من أهل الإيمان في وجوه أهل الصلاة، ويفقدونها في وجوه تاركي الصلاة.

قال الله تعالى فيها:(سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ) [الفتح :29].

✉ولذا قال بعض السلف: من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار. وقال بعضهم: إن للطاعة ضياء في القلب، ونورا في الوجه، وسعة في الرزق، ومحبة في قلوب العباد.

📝صلاة الفريضة والنافلة نور، نور في القلب، ونور في الوجه، ونور في القبر، ونور في الحشر، لأن الحديث مطلق.

📝لأنها تمنع عن المعاصي، وتنهى عن الفحشاء والمنكر، وتهدي إلى الصواب، كما أن النور يستضاء به، وهي كذلك نور يوم القيامة؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ [الحديد: 12].

📝فالصلاة نور للعبد يضيء له طريقه، وتارك الصلاة يعيش في ظلمات بعضها فوق بعض، جهل ومعاصي وكفر، فهي تنير للعبد طريقه وتهديه إلى الطاعات، وتعينه على أنواع العبادات، وتكفُّه عن المعاصي والآثام والخطيئات، يقول الله -جل وعلا-:(اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ) [البقرة: 153]، ويقول جل وعلا:(إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ)[العنكبوت: 45].

📝ثم هي نور للعبد في قبره، ويوم حشره، ولقاء ربه، ذُكرت الصلاة عند النبي -ﷺ- يومًا فقال: "مَنْ حَافَظَ عَلَيْهَا كَانَتْ لَهُ نُورًا وَبُرْهَانًا وَنَجَاةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ لَمْ يُحَافِظْ عَلَيْهَا لَمْ يَكُنْ لَهُ نُورٌ وَلاَ بُرْهَانٌ وَلاَ نَجَاةٌ وكان يَومَ القِيامةِ مع قارونَ وفِرْعونَ وهامانَ وأُبَيِّ بن خَلَفٍ".

🌼"والصَّدَقَةُ": الصدقة: بذل المال للمحتاج تقرّباً إلى الله عزّ وجل.

"بُرْهَانٌ": أي دليل على صدق إيمان المتصدّق.

⇦وجه ذلك: أن المال محبوب للنفوس، ولا يبذل المحبوب إلا في طلب ما هو أحب، وهذا يدلّ على إيمان المتصدق، ولهذا سمى النبي -ﷺ- الصدقة برهاناً، لأنها دليل على صدق إيمانه، وبرهان على قوة يقينه، وعظم ثقته بربه، وحسن توكله عليه جل في علاه، وهي أيضا برهان ساطع على وقايته من الشح وسلامته من البخل: (وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)[الحشر: 9].

📝فيجب الإكثار من الإنفاق في وجوه الخير، والمسارعة إلى سد حاجة الفقراء، والبحث عن الأرامل واليتامى والفقراء المتعففين، والإنفاق عليهم، لتكون الصدقة خالصة لوجهه تعالى.

🌼"وَالصَّبرُ ضِيَاءٌ":

❍الصبر: حبس النفس عما تتمنى، وتحمُّلها ما يشق عليها، وثباتها على الحق رغم المصائب.

❍ضياء: هو شدة النور؛ أي: بالصبر تتكشف الكُرُبات.

📜قال الشيخ ابن عثيمين: الصبر: حبس النفس عما يجب الصبر عنه وعليه، قال أهل العلم: والصبر ثلاثة أنواع:

الأول: صبر عن معصية الله: بمعنى أن تحبس نفسك عن فعل المحرّم حتى مع وجود السبب.

الثاني: صبر على طاعة الله: بأن يحبس الإنسان نفسه على الطاعة.

الثالث: صبر على أقدار الله: فإن الله تعالى يقدر للعبد ما يلائم الطبيعة وما لا يلائم، والذي لا يلائم يحتاج إلى صبر، بأن يحبس نفسه عن التسخّط القلبي أو القولي أو الفعلي إذا نزلت به مصيبة.

✉وهناك مرتبة فوق الصبر وهي الرضا بأقدار الله، والرضا بأقدار الله أكمل حالاً من الصبر على أقدار الله، والفرق: أن الصابر قد تألّم قلبه وحزن وانكسر، لكن منع نفسه من الحرام.

⇦والراضي: قلبه تابع لقضاء الله وقدره، فيرضى ما اختاره الله له ولا يهمّه، فهو متمشٍّ مع القضاء والقدر إيجاباً ونفياً.

🤔وأي أنواع الصبر الثلاثة أفضل؟

⇦نقول: أما من حيث هو صبر فالأفضل الصبر على الطاعة، ثم الصبر عن المعصية، ثم الصبر على الأقدار، لأن الأقدار لا حيلة لك فيها.

✉الصبر الاختياري أكمل من الاضطراري، ولهذا كان صبر يوسف الصديق – عليه الصلاة والسلام – عن مطواعة امرأة العزيز أفضل وأكمل من الصبر على ما ناله من الحبس أو ما ناله من إلقاء إخوته له في الجب... وكذلك كان صبر نوح وإبراهيم وموسى وعيسى – عليهم الصلاة والسلام – على ما أنالهم الله من الأوامر وأعطاهم من الشريعة أكمل.

⇦ أما من حيث الصابر: فأحياناً تكون معاناة الصبر عن المعصية أشد من معاناة الصبر على الطاعة.

"وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ":

📋قال الشيخ ابن عثيمين: ولم يقل: إنه نور، والصلاة قال: إنها نور. وذلك لأن الضياء فيه حرارة، كما قال الله عزّ وجل: (جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً) ففيه حرارة، والصبر فيه حرارة ومرارة، لأنه شاق على الإنسان، ولهذا جعل الصلاة نوراً، وجعل الصبر ضياءً لما يلابسه من المشقة والمعاناة.

⇦والمراد أن الصبر محمود لا يزال صاحبه مستضيئًا مستهديًا مستمرًّا على الصواب.

📋قال ابن عطاء: الصبر: الوقوف مع البلاء بحسن الأدب، وقال أبو علي الدقاق: حقيقة الصبر ألا يعترض على المقدور، فأما إظهار البلاء لا على وجه الشكوى، فلا ينافي الصبر؛ قال الله تعالى في أيوب عليه السلام: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: 44]، مع أنه قال: ﴿مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾ [الأنبياء: 83]؛ قاله النووي، والله أعلم.

📋وقد قال ابن رجب رحمه الله: "ولما كان الصبر شاقًّا على النفوس، يحتاج إلى مجاهدة النفس، وحبسها وكفها عما تهواه، كان ضياءً"، فلا نجاح في الدنيا ولا فلاح في الآخرة إلا بالصبر.

📋وقال الغزالي: "فلنُسمِّ هذه الصفة التي بها فارق الإنسانَ البهائم في قمع الشهوات وقهرها باعثًا دينيًّا، ولنسمِّ مطالبة الشهوات بمقتضياتها باعث الهوى، وليفهم أن القتال قائم بين باعث الدين وباعث الهوى، والحرب بينهما سجال، ومعركة هذا القتال قلب العبد.. فالصبر عبارة عن ثبات باعث الدين في مقابلة باعث الشهوة، فإن ثبت حتى قهره واستمر على مخالفة الشهوة، فقد نصر حزب الله، والتحق بالصابرين، وإن تخاذل وضعف حتى غلبته الشهوة ولم يصبر في دفعها، التحق بأتباع الشياطين".

❁"والقُرآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَو عَلَيْكَ":

❍حجة: برهان ودليل ومرشد ومدافع عنك.

📝حجة لك إن تلوته حق تلاوته، متفهمًا معانيه، عاملًا بهداياته: (إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ)[الإسراء: 9].

📝أما من يقرأ القرآن ويعرِض عن العمل بالقرآن فإن القرآن حينئذٍ حجة عليه لا له، وفي الحديث: "إِنَّ اللَّهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْقُرْآنِ أَقْوَامًا وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ"، من قرأ القرآن متدبرًا هداياته عاملًا

بإرشاداته كان من أهل القرآن الذين هم أهل الله وخاصته، ومن أعرض عن العمل بالقرآن وهداياته كان القرآن حجة عليه.

📝القرآن دستور المسلم، فعليه الإقبال على تلاوته مع تفهُّم معناه والعمل بمقتضاه، ومن عمل به فهو حجة له وشافع، ومن لم يعمل به فهو حجة عليه.

قوله: "كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو":

❍يغدو: يذهب باكرًا يسعى لنفسه.

⇦أي كل الناس يخرج مبكراً في الغدوة في الصباح وهذا من باب ضرب المثل.

"فَبَائِعٌ نَفْسَهُ":

❍بائع نفسه: لله تعالى بطاعته، أو لشيطانه وهواه بمعصية الله تعالى وسخطه.

⇦أي الغادي يبيع نفسه، ومعنى يبيع نفسه أنه يكلفها بالعمل، لأنه إذا كلفها بالعمل أتعب النفس فباعها.

👈ينقسم هؤلاء الباعة إلى قسمين: معتق وموبق، ولهذا قال:

❁"فَمُعْتِقُهَا أَو مُوبِقُهَا":

❍مُعتقها: مخلِّصها من الخِزي في الدنيا، والعذاب في الآخرة.

❍موبقها: مهلكها بارتكاب المعاصي وما يترتب عليها من الخزي والعذاب.

⇦فيكون بيعه لنفسه إعتاقاً إذا قام بطاعة الله كما قال الله عزّ وجل: (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ) يشتري نفسه أي يبيع نفسه ابتغاء مرضاة الله عزّ وجل، فهذا الذي باع نفسه ابتغاء مرضاة الله وقام بطاعته قد أعتقها من العذاب والنار.

⇦والذي أوبقها هو الذي لم يقم بطاعة الله عزّ وجل حيث أمضى عمره خسراناً، فهذا موبق لها أي مهلك لها.

❍المسلم يسعى لأن يستفيد من وقته وعمره في طاعة الله عز وجل، ولا يشغل نفسه إلا بمولاه سبحانه، وما يعود عليه بالنفع في معاشه ومعاده.

📝وانظر إلى هذا الحديث: "كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبَائِعٌ نَفْسَهُ" يتبين لك أن الإنسان لا بد أن يعمل إما خيراً وإما شراً.

📝أن الحرية حقيقة هي القيام بطاعة الله عزّ وجل، وليس إطلاق الإنسان نفسه ليعمل كل سيء أراده، قال ابن القيم – رحمه الله – في النونية: هربوا من الرق الذي خلقوا له وبلوا برق النفس والشيطان، فكل إنسان يفر من عبادة الله فإنه سيبقى في رق الشيطان.

📝أن كل إنسان إما ساعٍ في هلاك نفسه أو فكاكها، فمن سعى في طاعة الله فقد باع نفسه لله، وأعتقها من عذابه، ومن سعى في معصية الله فقد باع نفسه بالهوان، وأوبقها بالآثام الموجبة لغضب الله وعقابه.

قال الحسن: "المؤمن في الدنيا كالأسير يسعى في فكاك رقبته، لا يأمن شيئًا حتى يلقى الله".

وقال: "ابن آدم، إنك تغدو وتروح في طلب الأرباح، فليكن همك نفسك، فإنك لن تربح مثلها أبدًا".

وقال أبو بكر بن عياش: "قال لي رجل مرة وأنا شاب: خلِّص رقبتك ما استطعت في الدنيا من رق الآخرة، فإن أسير الآخرة غير مفكوك أبدًا، قال: فوالله ما نسيتها بعد".

لقد أصبح حال الكثير من المسلمين اليوم إلا من رحم ربك لا همَّ لهم إلا السعي وراء حطام الدنيا فهي غاية آمالهم في هذا الزمان ومنتهى مرادهم، متناسين غافلين عن قول الله عز وجل:(مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ)[الشورى: 20]

فمن كان همَّه ومراده وشغله الشاغل هو العمل من أجل الدنيا، فإن الله بعَدلِه يوفيه عمله الذي التمسه من أجل الدنيا، ولكنه ينال الخسران من الله في الآخرة (وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا) [الكهف: 49]

ولقد حذرنا النبي – ﷺ– من الركون إلى الدنيا ولذاتها مخافة الوصول إلى التنافس والتعارك والتحاسد والتناحر على حطامها، فقال – ﷺ–:"فَوَ اللَّهِ ما الفَقْرَ أخْشَى علَيْكُم، ولَكِنِّي أخْشَى أنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا كما بُسِطَتْ علَى مَن كانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كما تَنَافَسُوهَا، وتُهْلِكَكُمْ كما أهْلَكَتْهُمْ" صحيح البخاري.

النَفسُ تَبكي عَلى الدُنيا وَقَد عَلِمَت ... إِنَّ السَلامَةَ فيها تَركُ ما فيها

لا دارَ لِلمَرءِ بَعدَ المَوتِ يَسكُنُها ... إِلّا الَّتي كانَ قَبلَ المَوتِ بانيها

فَإِنْ بَنَاها بِخَيْرٍ طابَ مَسْكِنُها ... وَإِنْ بَنَاها بِشَرٍّ خابَ بانِيها.

لقد خلق الله عز وجل الإنسان وميزه عن باقي المخلوقات وكرَّمه، وسخر له ما في السماوات وما في الأرض، لا ليأكل ويشرب ويتمتع ويلبس ويلهو ويلعب، وإنما خلقه لعبادته كما أخبر بذلك جل جلاله فقال: (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) [الذاريات: 56]

وقال سبحانه مخاطبًا الغافلين عن هذه الغاية التي من أجلها خلقوا: (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ) [المؤمنون: 115]، وقال جل جلاله: (أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى) [القيامة: 36] يعني لا يؤمر ولا ينهى.

قال ابن القيم: فَالْعِبَادَةُ هِيَ الْغَايَةُ الَّتِي خَلَقَ لَهَا الْجِنَّ وَالْإِنْسَ وَالْخَلَائِقَ كُلَّهَا، وَلَهَا أُرْسِلَتِ الرُّسُلُ، وَأُنْزِلَتِ الْكُتُبُ، وَلِأَجْلِهَا خُلِقَتِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ؟

قال عز وجل: (وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ)، لقد أخبر ربنا تبارك وتعالى عباده أن الدنيا دار ممر لا دار مقر، ووعظ الله عز وجل عباده وذكرهم زوال الدنيا وفناء ما فيها من الأموال وغيرها، وأخبر أن كل صغير وكبير ودقيق وجليل مرجعه ومآبه إلى خالقه جل جلاله، ولا محالة

ولا مهرب ولا مفر من إتيان الآخرة والرجوع إليه سبحانه، ومحاسبته خلقَه على ما عملوا، ومجازاته إياهم بما كسبوا من خير وشر، ويحذرهم عقوبته، فقال تعالى: (وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ)[البقرة: 281].

فليحذر العباد وليتعظوا بموعظة الله لهم وليمتثلوا أمره فالأمر جدٌّ خطير وعظيم، وإنه ليسير على من يسره الله عليه.

قال الطبري: في تفسير هذه الآية، يعني بذلك جل ثناؤه: واحذروا أيها الناس يومًا ترجعون فيه إلى الله فتلقونه فيه، أن تردوا عليه بسيئات تهلككم، أو بمخزيات تخزيكم، أو بفاضحات تفضحكم، فتهتِكُ أستاركم، أو بموبقات توبقكم، فتوجب لكم من عقاب الله ما لا قِبل لكم به، وإنه يوم مجازاة بالأعمال، لا يوم استعتاب، ولا يوم استقالة وتوبة وإنابة، ولكنه يوم جزاء وثواب ومحاسبة، توفى فيه كل نفس أجرها على ما قدمت واكتسبت من سيئ وصالح، لا تغادر فيه صغيرة ولا كبيرة من خير وشر إلا أحضرت، فوفيت جزاءها بالعدل من ربها، وهم لا يظلمون.

إن الناس في مسيرهم إلى الله عز وجل ينقسمون إلى قسمين لا ثالث لهما: إما غاد لإيباق نفسه، وإما غاد لإعتاق نفسه ولقد أخبر النبي – ﷺ– بقوله: "كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبَايِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوبِقُهَا"، وفي لفظ آخر قال – ﷺ–: "النَّاسُ غَادِيَانِ، فَبَائِعٌ نَفْسَهُ فَمُوبِقٌ رَقَبَتَهُ، وَمُبْتَاعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقٌ رَقَبَتَهُ" أخرجه أحمد.

قال النووي: "فمعناه كل انسان يسعى بنفسه فمنهم من يبيعها لله تعالى بطاعته فيعتقها من العذاب، ومنهم من يبيعها للشيطان والهوى باتباعهما فيوبقها أي يهلكها والله أعلم"

فلينظر كل واحد منا من أي الفريقين؟ ومن أي الصنفين؟ ومن أي الغاديين؟ وإنما يقسَّم الناس إلى هذين الفريقين على حسب أقوالهم وأفعالهم:

فمن الناس من يغدُو ليوبق نفسه بسوء قوله فإذا تكلم لا تسمع فاه يفوح إلا بكل سباب وفحش وكذب وبذاءة، وتراه على أدنى المواقف يسب ويلعن ، متناسيًا قول النبي الأمين –ﷺ–: " إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مَا يَتَبَيَّنُ مَا فِيهَا يَهْوِي بِهَا فِي النَّارِ أَبْعَدَ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ "، " مَا يَتَبَيَّنُ مَا فِيهَا ": مَعْنَاهُ لَا يَتَدَبَّرهَا وَيُفَكِّر فِي قُبْحهَا، وَلَا يَخَاف مَا يَتَرَتَّب عَلَيْهَا، وغادٍ آخر يتأمل الكلمة إن كانت خيراً تكلم وإلا أمسك، لا يعرف إلا الصدق في الحديث، فحفظ لسانه من الوقوع في أعراض الناس والنطق بما يغضب الله عز وجل فكان جزاؤه أن وُفِق لما كان خيرًا له، وفي نهاية حياته نال الرضوان والفضل من الله العظيم، فختم له بخير الكلام، " من كانَ آخرُ كلامِهِ لا إلَهَ إلَّا اللَّهُ دَخلَ الجنَّةَ "صحيح أبي داود

وصنف من الناس آخر يغدو تاركًا لصلاته متبعًا لشهواته، متناسيًا قول الله جل جلاله: (فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا) [مريم: 59]، غافلاً عن قوله تعالى: (فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ)، فترى هذا الصنف من الناس

يغدو على كل مكان وطريق فيه لهو ولعب، كالعاكفين في الملاعب ليل نهار والجالسين على المقاهي، لا يعرفون لله حق ولا يعرفون لأي مسجد طريق، وصنفٍ آخر علموا حق الله عليهم فتعلقت قلوبهم بالمساجد محافظين على الصلوات راجين العفو والفضل من رب الأرض والسماوات إلى أن شاء الله عز وجل أن تقبض أرواحهم على ما كانوا يحبون من العبادات، كما ذكر عن رجل اسمه" عبد الرحيم بن نصر بن يوسف "، وهو من فقهاء الشافعية، وكان يؤم الناس بمدرسة بعلبك، مات وهو في السجدة الثانية من الركعة الثالثة من الظهر سجدها فانتظره من خلفه أن يرفع رأسه ثم رفعوا رؤوسهم وحركوه فوجدوه ميتا وذلك سنة ست وخمسين وستمائة. طبقات الشافعية الكبرى للسبكي

وصنف آخر من الناس يغدو في طلب رزقه لا يبالي من أي وجه يطلبه، ولا يهمه إلا جمع المال سواء كان من حرام أم حلال فتراه يتعامل بالربا بدعوى المصلحة والفائدة، وتراه يقبل الرِشوة، وتراه يشهد الزور، وتراه يأكل أموال الناس بالكذب والباطل والبهتان، وصنف آخر من الناس يبحث عن الحلال الطيب فإن لم يجد صبر وتعفف ورضي بالقليل ليس له هم إلا رضا الله، يصبر على الجوع ولا يصبر على غضب الله.

وصنف آخر وما أكثره في زماننا ولا حول ولا قوة إلا بالله، لا يعرِف إلا الشغب والضجيج والطبل والمزمار، فتراه مستمعًا للأغاني الساقطة متمسكاً بها ومصرًّا على سماعها وملازمًا لها، ثم هو في مشاهدته لا يشاهد إلا كلَّ ساقط نتنٍ خبيث، أضاع عمره وأفناه وأوبق دينه ودنياه فلا سمعًا حفِظ ولا بصرًا غض، وصنف آخر عاكف على كتاب الله تلاوةً، وحفظاً، علماً وتعليماً، ينعمون في رياض الجنة وحلق الذكر.

تلك هي بعض الصور لفريقين من الناس فمنهم سعيد مُمتثل لأمر ربه، غاد في إعتاق نفسه بالطاعة، ومنهم شقي موبق لنفسه تاركًا لها تسير في اللهو والعصيان دون لجام ولا قيد يقيدها، فاختاري لنفسك أحد الغاديين ، فمن أراد أن يعتق نفسه من عذاب الله يوم القيامة فليزمها التوبة والعمل الصالح، فلا يزال باب التوبة مفتوحًا، فمهما أسرف المرء على نفسه من الذنوب ثم ندم ورجع وأناب إلى ربه فإن الله برحمته ومنِّه وكرمه يقبله فهو جل جلاله التواب الرحيم، قال تعالى: (قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)[الزمر: 53]

ومن الأسباب التي تساعد على ثبات العبد على الطاعات:

1-الدعاء: وهو من أعظم أسباب التوفيق للطاعة، وقد كان النبي -ﷺ- يكثر من الدعاء بالثبات على دينه، وكَانَ أَكْثَرُ دُعَاءِ رَسُولِ اللهِ -ﷺ- يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ.

2-صحبة الصالحين: وهي من أنفع أسباب الثبات فعن أبي هريرة -رضي الله عنه-، أن النبي -ﷺ-قال: "الرجُلُ على دِينِ خَليلِهِ، فلينظر أحدُكُم من يُخالِلُ" صحيح الجامع

3-الزيادة من العمل الصالح: ومن ءامن بالله وعمل صالحًا ثبّته الله عز وجل على الدين وهداه إلى صراطه المستقيم قال تعالى: (يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ....) [إبراهيم: 27]

المراجع:

❶الطهور شطر الإيمان والحمد لله تملأ الميزان: عبد العال سعد الشليّه.

❷كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها: الشيخ محمد بن مسعود العميري الهذلي.

❸كل الناس يغدو: اللجنة العلمية.